بسم الله الرحمن الرحيم

"الغلو في الدراسات الإسلاميَّة[1] تهمة أم حقيقة"؟

كلمة التحرير

طه جابر العواني

"الغلوّ" مصدر "غلا" إذا تجاوز الحدّ. ويكون فيما هو ماديٌّ وفيما هو معنويٌّ، وتوصف به الأفكار والأقوال والتصرُّفات والأفعال. كما يوصف به الأفراد والجماعات. فيقال: "فلان غالٍ" و"فرقة أو طائفة غالية". ويقال: "غلت الأسعار"، إذا جاوزت حدودها. كما يقال: "غلا في دينه" و"غلا في مذهبه".

وعندي: أنَّ "الابتداع والبدعة" مما يندرج تحت مفهوم "الغلوّ" فهي تجاوز للحد –الذي هو الأصل سواء أكانت في جانب الزيادة على الأصل أو النقص منه. أو تغيير الأصل بنوع من أنواع التغيير لتجاوز حدّه المقرَّر بحسبه.

وقد غلب "الغلوّ" على أمم سابقة في أديانهم حتى جاوزوا حد الحق الذي نزلت تلك الأديان به إلى باطل افتروه لم ترد به أصول تلك الأديان، فنعى الله (تعالى) عليهم ذلك، وقال: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً**﴾(**آل عمران: 171**).

والذين ذهبوا إلى بيوت النبيّ –صلى الله عليه وآله وسلم- يسألون عن عبادته، فلما أخبروا ... كل منهم ما يفعله هو بحيث بدا لمن سمعهم كأنّهم تقالوا عبادة رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم- كانوا غلاة ومغالين، ولذلك رد رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم- ذلك، وختم بقوله: "تلك سنتي فمن رغب عن سنتي فليس منّي"[(2)].

وفي تعليمه – صلى الله عليه وآله وسلم- لعبد الله بن عمرو أن يقتصر من الصيام على ما حدّه له، تنبيه له وتحذير من الوقوع في الغلوّ.

---

[1] هناك إضافة أضمرناها، وهي "علوم"، فالشريعة ذاتها منزَّهة عن الغلوّ من حيث كونها وضعًا إلهيًّا سائغًا لذوي العقول ولكن الغلوّ ظاهرة تحدث للفهم الإنساني والفقه البشري للشريعة. فالغلو ظاهرة وعرض مرضيّ "للتديُّن"، لا للدين ذاته.

[2] حديث الرهط الثلاثة الذين ذهبوا إلى بيوت أزواج النبي يسألون عن عبادته. انظره بتمامه في صحيح البخاري (5/ 1949) حديث (4776) وابن حبان (12/2/ ح/31) والبيهقي في السنن الكبرى (7/ 77/ 13226).

وكذلك في قوله لابن عمر: "... فإن لزوجك عليك حقًا وإن لنفسك عليك حقًا وإن لزورك عليك حقا فأعط كل ذي حق حقه".

لقد كان – صلى الله عليه وآله وسلم– شديد الحذر والخوف على أمته من الوقوع في "الغلوّ" بكل ألوانه وأشكاله، وكذلك خلفاؤه الراشدون المهديّون من بعده: فكان عليه الصلاة والسلام– كالآخذ بحجز الأمَّة من السقوط في دركات الغلوّ. وكان يتجنب بوادر "الغلوّ"، وهي ما تزال في بداياتها لئلا تتحول إلى ظواهر يصعب اقتلاعها بعد ذلك؛ ولذلك فإنَّ من العسير أن نجد الغلوّ "ظاهرة" اجتماعية في "جيل التلقي" كلّه– أمّا بعد ذلك الجيل فقد شاعت ظواهر "الغلوّ" بعد الفتن خاصة، بل ما كانت الفتن إلاّ انعكاسا وتجسيدًا "للغلوّ" بأنواعه المختلفة.

ولما ظهرت الفرق، واقتربت الأمّة –بعد أن ضعف الاعتصام بكتاب الله انتشرت حالة "الغلوّ" وغلت، وتعدّدت "الفرق الغالية" وتنوعت. وقد صارت هذه الفرق مصدرًا خصبًا جدًا لإنتاج "أفكار الغلوّ". وهناك جدل يمكن أن يثار من الذي نشأ أولاً، "الأفكار الغالية"، أم "الفرق الغالية"؟ وهو سؤال أو جدل لا يترتب عليه –عندنا– الكثير. فالفرق تتكون حول أفكار محدّدة محدودة، ثم تبدأ بتوليد أفكار أخرى تعزّز بها تلك الأفكار التي صارت "أيديولوجيا" لتلك الفرقة أو الطائفة. والقارئ في كتب الملل والنحل يجد ذلك بوضوح شديد في تاريخ نشوء تلك الملل والنحل، وتطوّرها وصيرورتها.

<u>بعض مصادر الغلوّ</u>:

للغلوّ مصادر كثيرة، ومنابع عديدة؛ بعضها يتصل بطبائع الناس. وبعضها يتّصل بعالم الأفكار وتأثيراته. وبعضها يتّصل بالظروف والأشياء التي تحيط بالإنسان. أي: مكوّنات بيئته بكل تفاصيلها ووظائفها من أسرة ومدرسة وشارع وحقل ومسجد ونظم حياة. فالغلوّ يتولد عن منظومة حياة كاملة؛ ولذلك كان القرآن المجيد يؤكد على التوازن والوسطيَّة، ويعنى بغرسها في كل ما أمر به أو نهى عنه. كما تجد إشارات إلى كل من "التوازن والوسطيّة" في قصص القرآن وأمثاله ومواعظه. فالقرآن الكريم عني عناية بالغة في "ضبط النسب" في كل تشريعاته ليحمي الإنسان والكون من أي اختلال في النسب يؤدي إلى الفساد في الأرض، والانحراف في الإنسان، وعدم تحقيق غاية الحق من الخلق. وتدمير المقاصد. وذلك الذي سمَّيناه "ضبط النسب" هو التوازن: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ (**الحديد: 25**).

وكل سيرة رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم– وسنَّته إنما هي تطبيقات ونماذج وأمثلة واقعيَّة على "ضبط النّسب"، وإحداث حالة التوازن والوسطيّة، وقد حقق ذلك بالكتاب وبالأسوة. ونستطيع

أن نتابع سيرته –عليه الصلاة والسلام- وهو يبني الأمَّة الوسط الشاهدة على الناس من بعده بالقرآن، لنطَّلع على مئات الأمثلة والنماذج التي تعزِّز ذلك، وتبرزه، وتمكن من التأسِّي به في ذلك لمن شاء.

خصائص الرسالة الخاتمة ونفي الغلوّ:

قامت الرسالة الخاتمة على مجموعة من الخصائص الهامَّة التي لا بد من العلم بها، وفهمها، ومعرفة أبعادها، وآثارها في منع الغلوّ والحيلولة دون اشتمال العلوم الإسلاميَّة على ما يمكن أن يؤدي إليه، وهذا من شأنه أن يجعل الإنسان المسلم قادرًا على الانفتاح على البشريَّة كلّها –بقطع النظر عن- الاختلافات العرقية واللغوية والجغرافية والدينية والمذهبية، أهمها:

1. أن هذه الرسالة نسخت حالة الاختصاص القوميّ أو الجغرافيّ، وبنت حالة "العالميَّة". وحين كان الرسول من الرسل يأتي إلى قوم أو قرية، جاء عليه الصلاة والسلام للناس كافة.
2. تجاوزت هذه الرسالة الخاتمة "النسبيَّة والتاريخانيَّة" لتكون عامَّة في الزمان والمكان. وهذا يعزز اتجاهات الانفتاح على الآخرين، والتشبث بالاعتدال، والبعد عن الغلو.
3. تجاوزت هذه الرسالة حالة معالجة مشكلات آنيَّة لبيئة محدّدة، وجعل هذه المشكلات هي المحور الأساسي الذي تدور حوله تشريعاتها مثل "جرائم الشذوذ الجنسي في رسالة لوط"، ووجوب الوفاء بالكيل بالميزان والقسط وألا يبخسوا الناس أشياءهم، وأن لا يفسدوا في الأرض في رسالة شعيب، وغير ذلك من انحرافات الأقوام التي بعث فيهم الأنبياء، فكان الاستيعاب والتجاوز لتلك الحالات الخاصة، إلى بيان مجموعة من الكليّات التي يمكن أن تتناول ملايين المشكلات، بعمومها وشمولها لأيّ تجمع وفي أي مجتمع وفي أيّ زمان ومكان، وفي أي شأن من شئون الحياة فاكتسبت بذلك صفتي "العموم والشمول" ومن شأن هاتين الصفتين أن يحولا بين هذه الشريعة، وما يبنى عليها من علوم ومعارف بشكل دقيق وبين سائر مستويات الغلوّ.
4. أكدت شريعة الإسلام حاكمية القرآن المجيد؛ ولأنَّ رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم- خاتم النبيّين ولا نبيّ بعده، فقد جعل الله "الحاكميَّة للقرآن المجيد"؛ وجعله معصومًا محفوظًا ليقوم مقام الرسول الدائم إلى يوم الدين. له المرجعيَّة والحاكميَّة بقراءة بشريَّة؛ فهو الذي يحكم بين الناس في كل ما يشجر بهم. كما جعل الشهادة على الناس –بعده- لأمَّة القرآن، ولا ينازع أحد بأنَّ القرآن المجيد قد قررّ وحدة البشرية ﴿**خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء**﴾ (**النساء: 1**) كما لا ينازع احد بأن القرآن قد اعتبر الأرض كلها بيتًا واسعًا للبشريَّة كلّها. ينبغي أن لا يستأثر به فريق دون آخر. ودعا أن تدخل البشريَّة في السلم كافّة، وأن توحد جهودها لإعمار الأرض، وعدم السماح بانتشار الفساد والإفساد فيها. وأكد

على مجموعة من القيم التي من شأنها أن تكون مشتركة بين البشر تجمع بينهم، ولا تسمح لأسباب الغلوّ بالظهور مثل "العدل والأمانة والشورى والحريات العامّة بأنواعها"

5. جاءت شريعة الإسلام شريعة تخفيف ورحمة، فنظراً لعالميّة الخطاب القرآنيّ، وختم النبوة وحاكميّة القرآن، فقد اشتمل هذا الكتاب العزيز على شريعة تخفيف ورحمة، فلم يُشب أي جانب من جوانب هذه الشريعة بشوائب الإصر والأغلال والشدة والنكال، فهي –بطبيعتها– لا تقبل الغلوّ.
6. أقرت مبدأ الاجتهاد الإنساني؛ فلكي تكون شريعة تخفيف ورحمة، ونفي للإصر والأغلال كان تشريع "الاجتهاد الإنسانيّ" وتعليل أحكامها ومعقوليَّتها لتيسير ذلك الاجتهاد، وجعل كل من يستظل بظلال هذه الشريعة يدرك أن كل ما فيها لصالح البشرية، والبشر مشاركون فيه باجتهادهم وتطبيقهم وهي منهم، فظروفهم وحاجاتهم وطاقاتهم مراعاة فيها –فهي ليست مفروضة على الناس، كما كان الحال في الشرائع السابقة. وهذه الرسالة جعلت الأمّة مخاطبة بالاجتهاد مثل ما هي مخاطبة بالوحي ذاته، ومنح الرأي الإنسانيّ حجيَّته واحترامه، وهذا الاحترام للرأي والاحتجاج به أمر بارز وشأن ظاهر في علومنا كلّها، وهل كانت "عالميَّة الخطاب وحاكميَّة الكتاب، وختم النبوة، وشريعة التخفيف والرحمة، والأمَّة الشاهدة هذه المعالم والمحدّدات المنهاجيَّة هل بقيت واستمرت حاضرة ظاهرة سائدة على عصرنا هذا بحيث يخرج بها الباحث والطالب والأستاذ المتخرّج في هذه العلوم وتنعكس آثار هذا النسق عليه معرفة وسلوكًا؟ بجبروت الألوهيَّة؛ وذلك من شأنه أن ينفي عن هذه الشريعة الغراء كل أسباب ومنابع الغلوّ.
7. عقيدة العقل والفطرة، فلتحقيق حاكميَّة القرآن وختم النبوة، وعالميَّة الخطاب كان لا بد أن تكون "العقيدة" بسيطة محدَّدة في عناصرها، لا تشتمل على أيّ عنصر أو ركن يصادم العقل الإنسانيّ، أو الفطرة البشريَّة، بل على العكس من ذلك تجد الفطرة الإنسانيَّة –في نفسها– تجاوبًا معها، واستعدادًا لقبولها، بل تجسد فيها أجوبة على تساؤلاتها وإخراجها وإخراج العقل الإنسانيّ من الأزمة والحيرة. فهي لم تطالب الإنسان باليقين بما لم تُقِمْ عليه دليلاً يقينيًا عقليًا أو حسيًا. فهناك أدلة "الخلق والإبداع والعناية والسنن والقوانين الإلهية الكونيَّة والفطرة" التي لا تجعل الإنسان قادرًا على الطمأنينة في الحياة ما لم يعرف خالقه، ويحصل على إجابات دقيقة عن أسئلته.
8. جاءت شريعة الإسلام منفتحة على سائر الأنساق الثقافية؛ فبالإضافة إلى خصائص العقيدة التي أشرنا إليها فإنَّ العقيدة التي جاءت بها الرسالة الخاتمة جاءت قادرة على الانفتاح على سائر الأنساق الثقافيَّة والحضارية وسائر المستويات المعرفية، فهي تعالج "العقدة الكبرى" لأيّ نسق، ولا تسمح باستلاب الإنسان والكون لاهوتيا فالله (تبارك وتعالى) لم يخلق أيًّا منهما لاستلابه، وهو الغني الحميد. ولم يخلق أيًّا منهما للتصارع معه بأيّ نوع من أنواع التصارع. فالعقيدة تنظم العلاقة بين الله والإنسان تنظيمًا في غاية الدقة: فالله (تعالى) رفع الإنسان إلى مستوى أعلى بكثير من

المستوى الذي رفع الإنسان نفسه إليه، حين جعل منه طرفًا في عهد بينه وبين الإنسان: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ**﴾ (**الأعراف: 172**) ثم حين كرمه وجعل منه خليفة في الأرض، وأسجد له ملائكته: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ (**البقرة: 30**)، ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾ (**الإسراء: 70**) ثم حين ائتمنه من دون خلقه كافة وأوكل إليه أمانة "الحريّة" التي أبى الكون —كلّه- أن يحملها، وحملها الإنسان. وحين ابتلاه في هذه الحياة الدنيا ولم يستبد (سبحانه) بجزائه، بل جعل محاسبته إلى نفسه: ﴿**كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا**﴾ (الإسراء:14) ثم جزاه وجازاه على ما فعل: ﴿جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الواقعة: 24). وأما الكون فلم يستلبه فهو من سخره (سبحانه) للإنسان، مهّده له تمهيدًا، وأخضعه، ووضع السنن والقوانين التي تيسّر للإنسان القيام بمهمته في الاستخلاف.

فهل كانت "عالميّة الخطاب وحاكميّة الكتاب، وختم النبوة، وشريعة التخفيف والرحمة، والأمّة الشاهدة" هذه المعالم والمحدّدات المنهاجيّة، هل كانت حاضرة ظاهرة سائدة أذهان المؤسّسين في العلوم الإسلامية؟ وهل يخرج الباحث والطالب والأستاذ المتخرّج في هذه العلوم بهذه المحدّدات المنهاجيّة؟

هذا ما نود استكشافه من خلال إطلالة سريعة على أهم هذه العلوم، تاركين للباحثين المتفرّغين في هذا النوع من الدراسات تتبّع التفاصيل، ورصد المسائل الجزئيّة والأمثلة وآثارها.

الغلوّ وعلوم المسلمين ومعارفهم:

لحكمة بالغة اصطفى الله خاتم النبيين من بني إسماعيل —بعد أن فشل بنو إسرائيل في حمل رسالة الله إلاّ "بالطريقة الحماريّة". فنسخت آياتهم، وأنهي دورهم. ولم يوقف ذلك غلوُّهم ومكابرتهم. فإن سنَّة الله ماضية. ولحكمة بالغة أنزل القرآن على قلب النبيّ الأميّ محمد بن عبد الله —صلى الله عليه وآله وسلم- ليكون للعالمين نذيرًا، ويحمل للعالمين "الرسالة العالميَّة الخاتمة" حيث لا يمكن أن تكون للبشريَّة حُجَّة على الله بعد هذه الرسالة. ولحكمة بالغة تدرجت هذه الرسالة بشكل في غاية الحكمة والدقة من إقراء الله (تبارك وتعالى) لنبيه- صلى الله عليه وآله وسلم- ثم أمره بإنذار من حوله وعشيرته الأقربين، ثم إنذار أمّ القرى ومن حولها، ثم جزيرة العرب —كلّها- ثم الشعوب الأمّيَّة —التي لم يأتها قبله رسول، لتكون نهاية المدى لهذه الرسالة تصحيح الأديان الكتابيَّة والهيمنة عليها بعد التصديق عليها، وإعادتها إلى

حالة الصدق –الذي نزلت به قبل أن تنالها أيادي التحريف. وآنذاك يظهر الدين التوحيديّ الواحد على الدين كلّه وهو دين الحق والهدى والنور. ويمارس الإنسان التديّن بهذا الدين بحريَّة تامَّة لا يخشى ضغطًا ولا صدًّا ولا إكراهًا ولا حروبًا ولا صراعًا. ويدخل الناس كافَّة في السِّلم. فهل استطاعت علومنا ومعارفنا الإسلاميَّة أن تعكس طبيعة هذه الرسالة الإنسانية العالميَّة، وهل برزت فيها خصائص القرآن، وخصائص شريعته، وأنوار السيرة والسنّة، وهل كان التوازن الدقيق، والوسطيَّة طابعًا لها، وسمة غالبة عليها؟! بارزين في العلوم والمعارف التي أسِّست في الأصل لبيان ذلك –كلّه- وتقديم النموذج الأمثل للبشريّة كلّها.

الغلوّ وعلم التوحيد أو العقيدة أو الكلام:

أنشئ هذا العلم لبيان أركان ومقوّمات وخصائص التوحيد باعتباره جوهر ولباب رسالات المرسلين والنبييّن؛ ولأنّه أعلى المقاصد الحاكمة في جميع الرسالات، عليه يقوم بناء العهد والاستخلاف والأمانة والابتلاء، والفوز بالدارين. وهو في موقع القلب للدين وللتديُّن، إذا صلح صلح كل شيء، وإذا فسد فسد كل شيء.

وعن التوحيد تنبثق منظومة الحياة الإنسانيَّة الإسلاميَّة كلّها، وينبغي أن تكون آثاره بارزة في كل حركة أو سكنة أو رؤية أو رأي أو تصوّر أو فكر أو تصرّف أو سلوك أو أخذ أو عطاء للفرد والأسرة والمجتمع والأمَّة والدولة. مما يتلوه المسلم الموحِّد في الكتاب الكريم من آيات التوحيد يشاهده مجسَّدًا في الواقع. ممثَّلاً فيه.

ومن أهم خصائص التوحيد أنّه يضبط العلاقة بين الله (سبحانه) وبين الإنسان، بنسب وضوابط ومحدّدات وميزان غاية في الدقة وذلك للحيلولة دون أيّة إسقاطات أو انحرافات تسقط على التوحيد من ثقافات الناس، أو موروثاتهم، أو تصورات غير منضبطة فتفسد آثاره، وهذا يقتضي الالتزام التام بالقرآن الكريم تقريرًا لتلك الأركان، واستدلالاً عليها، وبيانًا لنواقصها، وسائر ما يتعلق بها فالقرآن ما ترك شاردة ولا واردة تتعلق بالتوحيد إلا بسطها وبيَّنها، وأوصل قارئيه إلى الثلج وبرد اليقين منها. وحاور كل طوائف البشريَّة المنحرفة، وعرض شبههم، وسائر مقولاتهم مهما بلغت، وناقشها، وبيَّن مداخل الانحراف التي ولجتها الأمم السابقة، وحذّر هذه الأمَّة من السقوط بمثلها. وصفة "الحجيَّة" بدت في حالة تزاوج بين العقل والشرع، بحيث تقوم على اصطحاب بين الرأي والسمع، وحالة أشبه بحالة "التكامل والتعاضد بينهما" لكيلا تكون هناك أيَّة مشاعر سلبيَّة قد تحدث للإنسان عندما تفرض عليه أمور ليس له فيها إلا أن يأخذها بقوة، عقلها أم لم يعقل، وينفذها بعزيمة وجد وصدق حتى لو ثقلت عليه أو أرهقته.

الغلو وعلم العقيدة:

ولقد عرض القرآن لسائر مقولات الأمم السابقة، وناقشها، وبيَّن مداخل الانحراف التي ولجتها تلك الأمم السابقة، وحذر هذه الأمَّة من السقوط بمثلها. وكان من المتوقَّع أن يبنى هذا العلم على قواعد

القرآن هذه، لا على سواها، لكنّ هذا العلم في غمرة استغراق كثير من علمائه في مجادلة الخصوم وأعداء التوحيد- من مشركين أصناميّين ومشركين كتابيِّين كانوا من أهل التوحيد ثم انحرفوا عنه — استعملوا كثيرًا من الطرق الفلسفية القديمة، والمناهج الكلامية، وأساليب المناطقة وكانوا —وهم يفعلون ذلك- يرون أنَّهم يلزمون أولئك الخصوم بما يمكن لهم أن يلتزموا به من أدلة العقول!! وفي خضم تلك المجادلات فترت علاقات كثير من هؤلاء بكتاب الله. وإذا بتلك الأسلحة التي ادَّعوا أنَّهم لن يستعملوها إلا في مجادلة أولئك الذين يتشبَّثون "بالدليل العقليّ" فقط من الكفار والمشركين، تنقل تلك الأسلحة إلى داخل الأمَّة لتصبح وسائل بأيدي الفرق المسلمة المتصارعة، فإذا بالأمة تزداد انقساما واختلافًا ونزاعًا، وتدخل إليها إشكاليّات لا حصر لها، منها "إشكاليَّة الجبر و"الاختيار" المدمِّرة، و"إشكالية الأسباب"، و"إشكالية مصادر تقييم الفعل الإنساني" ومصادر ذلك التقييم. و"إشكالية العلاقة بين العقل والنقل، وبين الحكمة والشريعة"، إلى غير ذلك من إشكاليات جعلت أنوار التوحيد تخبو، فإذا بالمسلم يدخل ميادين الحيرة والاضطراب، وتصاب رؤيته الكلية بكثير من الغبش، فبدأت الأزمات التي أخرجه التوحيد منها تصيب كل جانب من جوانب حياته، ففقد سلامة تصوره، وتراجعت فاعليته، وانهارت إرادته، وتشكك في قيمة فعله أو أهميته. بل انتهى إحساسه بذاته وبكرامته الإنسانية، وظن نفسه أنه مستلب من رب الجنود المتحكم فيه دون رأي أو إرادة منه. فألغي فهمه للسنن ودورها، ولم يعد يدرك الحكمة البالغة في التصرف الإلهيّ —الذي ينزل من عالم أمره إلى عالم إرادته ليتحقق بسنن وقوانين إلهية وكونيّة ثابتة قابلة للاستكشاف الإنسانيّ، ومنها: "الصيرورة" و"التفاعل" مع الإنسان والواقع، مع الأخذ بكل مكونات الإنسان والظروف الموضوعيّة المحيطة به، ليبلغ بعد ذلك مستوى "عالم المشيئة". "إنَّما أمره —إذا- أراد- شيئًا- أن يقول له كن فيكون".

إنَّ التصوّر الذي قدمه "علم الكلام" أنَّ الله (سبحانه وتعالى) استلب الإنسان والكون —معًا- وأعطى لذاته العليَّة حق التصرّف المطلق بكل منهما بعلن وبخفا، ففي العلن والظاهر تكون التشريعات التعبّديَّة غير المعقولة أو المعلَّلة، وعلى الإنسان القيام بها أدرك الحكمة أم لم يدركها. وفي الخفا —هناك "القَدَرُ" المسيِّر الذي لا يملك الإنسان فكاكًا منه، وكل ما عليه أن يتوقع مفاجآته في كل حين إلى جانبه أو ضدّه، سلبًا أو إيجابًا. وهذه التصورات —كلها- تصورات غريبة جاء بعضها من إسقاطات وثنيَّة مرت عبر ثقافة تلموديَّة، شاعت في بعض مناطق جزيرة العرب قبل البعثة المحمديّة. امتزجت بها إسقاطات اجتماعيَّة تاريخيَّة لمفهوم الإله كانت قائمة في جزيرة العرب —قبل البعثة- يجري استخدامها وتداولها بناءًا على تصوّرات المماثلة والمقارنة بين الله (تعالى) وسادة الرقيق وعظماء القبائل والقرى.

ولذلك نهى القرآن عن هذا النوع من المقارنات والمماثلات: ﴿**فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ* ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا**

حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (النحل: **74–79**) بل قد بلغ من لطفه وكرمه (سبحانه) أن سخّره للإنسان ليمارس مهمة الاستخلاف فيه في جدل وتفاعل معه، وبلغ من لطفه بالكون (عزَّ شأنه) أن جعل هذا الإنسان الذي سخره له أبنًا شرعيًّا لهذا الكون المسخّر، منه خلق وفيه استخلف، فالإنسان ليس عدوًا للطبيعة كما تزعم بعض الفلسفات. والطبيعة ليست عدوًا له لأن العلاقة بينهما علاقة "أم وأبنها".

وفي قضايا الخلق وتصريف شئون الحياة والأحياء جعل (تبارك وتعالى) السنن والقوانين التي لا تتبدل، ولا تقبل تغييرًا أو تحويلاً. وذلك مقابل كونيّ لحريّة الإنسان، ولتمام عملية التسخير له. ولذلك جعل (سبحانه) أمره يمر من خلال تلك المنظومة المحكمة فيقول (جل شأنه): ﴿**أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ *{78/36} قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾**(يس: **77–81**) .

ولتستطيع المنظومة العقيديّة أن تعمل متكاملة متعاضدة، فإنَّه (جل شأنه) أتاح لدعائم العقيدة وأركانها كل المتطلّبات ولم يوظّف قدرته المطلقة وعلمه الشامل المحيط، لإحداث أي شيء يعطّل الاختيار والحريَّة الإنسانيّة، أو يشل السنن والقوانين الكونيّة عن العمل، ولو شاء لفعل ولكنه جعل أمره –إذا أراد– شيئًا– أن يقول له كن فيكون"، "فأمره" تبارك اسمه يمر بإرادة هي التي صار الإنسان بمقتضاها حرًا مختارًا يفعل ما يشاء، وصار الكون مسخرًا محكومًا بسنن قوانين ، ومنها ما نسميّه –اليوم– "بالصيرورة"، و"التفاعل بين الطبيعة الأم والإنسان الابن" قبل أن يخرج إلى الحياة ويتمثَّل في عالم "المشيئة" ويكون "...شيئًا مذكورًا". فالله (تبارك وتعالى) تفضل بحكمته أن يكون طرفًا مع الإنسان والكون بحيث يوجه الطرفين–الإنسان والكون– بتلك المنظومة: "الاختيار للإنسان وتسيير الكون بالسنن الثابتة غير القابلة للتغيير، فيخرجهما من "الحالة السكونيّة" ويجري التفاعل –آنذاك– بتدرج سليم في اجتياز مراحل

التاريخ، والتطوّرات النوعيَّة. فلا يكون هناك أي مجال لظهور أفكار الصراع أو ما قد يستدعيه من التسلط والقهر والجبر والقدر وما إلى ذلك من منابع الغلوّ والتطرّف.

فهل انعكست هذه الأمور على علومنا الإسلاميَّة، ومنها علم "أصول الدين، او التوحيد أو العقيدة أو الكلام"؟! الجواب الوجيز: أنّها لم تنعكس عليه، ولا على بقيَّة العلوم الإسلاميَّة بأيّ مستوى من المستويات!!

أمَّا الجواب التفصيليّ فإنّه يقتضي دراسة تفاصيل هذه العلوم بعناية، والبحث في ثناياها عن هذا الذي ذكرناه. ليس ذلك فحسب، بل لابد من البحث في التصوّر الذي بناه "علم الكلام" لهذه المتفاعلات: الإنسان والكون، والحكمة الإلهيَّة. وكذلك لابد من البحث عن "النموذج المعرفيّ"، و"المنهج" —الذي توجِّه هذه العلوم به. وبمقتضى ذلك تتم المراجعة المعرفيَّة، وترسى دعائم هذه العلوم من جديد!! -إن شاء الله تعالى-. وفي "علم المراجعات" الذي نؤسسه لضبط مراجعاتنا لتراثنا علومًا وملكات ومسائل؛ لئلا تكون تلك المراجعات مجرد خواطر مرسلة لا تقوم على أساس علميّ، أو سند شرعيّ أو عقليّ نعتمد أول ما نعتمد على مراجعتها في ضوء "النسق" الذي شكَّل الدعائم الأساسيَّة لرسالة الإسلام —كلّها- عقيدة وشريعة ونظم حياة. لئلا تكون مصادر أو منابع للغلو والتطرّف أو الانحراف عن خط الاعتدال والوسطيَّة في "التدين". وهذه المراجعات تحتاج إلى جهود بحثية جماعية من متخصصين في هذه الحقول وفي العلوم الاجتماعية والإنسانية لتؤتي تلك الجهود ثمارها المباركة في إزالة ما قد يكون علق في بعض هذه العلوم من اتجاهات غلوّ لا تقبلها الرسالة الخاتمة. والله الموفق.